الشرف والسلطة في المغرب الأوسط الزياني

رضا بن النية
جامعة سطيف2

ملخص

تسعى هذه الدّراسة إلى معاينة التّفاعل بين الشّرف والسّلطة في المغرب الأوسط خلال العصر الزّياني ، ورصد آليات استثمار سلاطينها - من ورثة الموحّدين - للشّرف الذي تحوّل فيها إلى " أيديولوجيّة سياسيّة " لتبرير اختياراتهم السياسية وتوجّهاتهم الماليّة .

الكلمات المفتاحية : الشّرف ، السّلطة ، المغرب الأوسط ،العصر الزّيانى

Résumé

Il est communément connu que les mouvements réformistes dans le Maghreb - islamique – ont débuté dans le milieu rural - et qui s'est terminé par la la création de nouvlles entités politiques sur les traces d'autres mouvements et basées sur des doctrines religieuses orientales portant un projet réformiste et conduisant à une insurrection sociale critiquant le pouvoir et la gestion des crises de la communauté . L'époque Almohade voit la naissance d'un nouvel élément celui d'un mouvement évoquant la légitimité du pouvoir existant car associé à la descendence du prophète . On assiste aussi à l'émergence d'une nouvelle théorie politique de l'honneur (al sharaf) politique . Cette étude vise à présenter un aperçu de l'interaction entre al sharaf et le pouvoir au Maghreb Central à l'époque des Zianides. C'est une étude qui explique aussi les choix idéologiques et politiques de l'époque.

Mots clés : Al Sharaf , Pouvoir , Maghreb Central, L'époquezianide

Summary

Trditionally, most reformist movements in the Islamic Maghreb resulted in the appearance of new political entities . These were based on Oriental ideologies with reformist projects leading social mobility against the existing power and the way it managed crises that carved the cohesion of society. On the basis of the Almohad era, noble lineage became a crucial element in supporting the legitimacy of power

Hence, the purpose of this article is to view the interaction between honour and authority in the Maghreb during the Zayyanid era and how honour was used as a political ideology to justify political and fibnancial choices;

Keywords : Honour , Authority , Central Maghreb , Zayyanid Dynasty.

مقدمة

لا جرم أن الانتصارات التي أحرزها بنو عبد الواد في ابتداء أمرهم قد أسهمت في التوسيق لملكهم ، إلا أن أعقد ما أهمهم كان عسر التأسيس لوسط داخلي يوازن بين مصالح السلطة وطموحات النخب المتوثبة بشكل يكسب هذه السلطة شرعية سياسية ودينية ، ويضمن لها ولاء العصبيات الكبرى وقرار العائدات الجبائية .

وعلى الرغم من قدرة مؤسسة الزاوية على احتواء هذه المبادرة وضمان نجاحها في ظل تجدرها السوسيو. روحي في أوساط المجتمع وتناغم أنشطتها مع مختلف فعالياته ، إلا أن السلاطين الزيانيين لم يأمنوا جانبها وأوجسوا من قدرتها على خلق سلطة موازية لهم تعارض توجهاتهم وتهدد كيانهم ، مما اضطرهم للتنقيب بين الشرائح المغيبة عن بديل - يحظى بنفس الاحترام لدى الرعية ويكسب ثقتهم - يكون لهم سندا في وصد الأبواب أمام الزحف الصوفي ، ومُعينا في تدبير شؤون السلطنة ومباركة سياستها ، وأفرز هذا المخاض عن بزوغ فئة الشرفاء .

وعلى ضوء هذا المتغيرات تسعى هذه الدراسة لمُعاينة التفاعل بين الشرف والسلطة في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني ، ورصد آليات استثمار سلاطين هذه المرحلة لخطاب الشرف الذي تحوّل فيها إلى" أيديولوجية سلطة " لتبرير اختياراتهم السياسية وتوجهاتهم المالية .

1/الشرف ومسألة الشرعية في المغرب الأوسط

شكّلت مسألة الشرعية هاجسا متجددا ظل يؤرق تفكير حكّام الغرب الإسلامي بصفة مستديمة طوال فترة العصور الوسطى ، كونها الوسيلة المثلى لكسب رضى الرعية وتأييد العصبيات الكبرى ضد الحركات المناوئة ، وسبيلا يضمن لهم تزكية مشاريعهم السياسية ومباركة خياراتهم .

وقد جرت العادة أن الحركات التصحيحية التي انطلقت في معظمها من البادية ونجم عنها قيام كيانات سياسية جديدة على أنقاض أخرى متآكلة ، أن تستند إلى دعوات مذهبية مشرقية المنبت والمنهل تحمل مشروعا إصلاحيا وتقود حراكا اجتماعيا يقدح في السلطة القائمة وينتقد إدارتها للأزمات التي نخرت تماسك المجتمع .

ويقود هذا الحراك في العادة قبيل جديد من الأوساط المغمورة الذي مازال يحافظ على نقاوة عُصبته ويتسم بوفرة عدده وقوة شكيمته وخشونة طباعه ، فكثيرا ما مكّنت هذه الخصائص العصبيات الحاملة لها من حسم صراعها مع العصبيات الحاكمة في الحواضر التي ركنت إلى حياة الدعة والانغماس في الملذات[1]في صورة الحركات التي قادتها كتامة في كنف الشيعة الإسماعيلية وصنهاجة اللثام التي تبنت دعوة عبد الله بن ياسين.

وبدءً من العصر الموحدي أنضاف عنصر جديد لدعم شرعية السلطة القائمة ارتبط بالنسب الشريف ، إذ لم يكتف المهدي بن تومرت بربط نسبه بالقرشية بل رفعه لمرتبة أعلى تتصل بالبيت النبوي[2] ، ولئن كانت مقتضيات المهدوية فرضت ادّعاء هذا النسب فإنه من منظور آخر فتح بابا لنظريات سياسية جديدة أسهمت في إعادة ترتيب متغيرات الحقل الديني التي ستكون المحرك الفعلي للأحداث في المرحلة التالية

وتبعا لهذا الواقع ظل توظيف شعار الشرف خلال هذه الفترة صوريا ولم تترتب عنه تأثيرات سياسية واجتماعية بارزة ، ففي المغرب الأوسط - مجال دراستنا - تكاد تنعدم الإشارات إليه وما وجد منها يحمل دلالات سوسيو— دينية خالية من أية توجهات سياسية ، ونقل لنا في هذا المضمار الغبرين[3](ت 704 هـ/1304 م) بعض صور مكانة الشرفاء في بجاية ومظاهر تبجيل الناس لهم ،كما هو مبين في الجدول التالي :

العالم	التاريخ	مجال نبوغه	الامتياز	الصفحة
عائشة بنت أبي طاهر عمارة بن يحي الشريف	القرن7هـ/13م	الأدب	كانت أديبة شاعرة حظيت بتقدير ابن الفكون وأعجب الغبريني كثيرا بخطها (خطت يتيمة الدهر للثعالبي) .	ص/78 - 79
أبوعبد الله مُحَمَّد الشريف	القرن7هـ/13م	الفقه	كان خياطا وتاجر صوف بسوق بجاية ورعيا لشرفه استثناه أهل حرفته من أداء المكس	ص/ 177
أبوالحسن الحرالي	ت638 هـ/1239 م	الفقه	كان موقرا لآل البيت محترما لهم يقف احترما لهم لكل من يقدم منهم على مجلسه .	ص/157

ومع تداعي قوة الموحدين بعد موقعة حصن العقابسنة609 هـ/1209 م اندلعت حرب الوراثة بين الإمارات الثلاث التي قامت على أنقاضها ، ورغم حسم الحفصيين لمسألة الشرعية منذ البداية لصالحهم بفضل احتمائهم بالنسب القرشي وقوة عصبيتهم ، إلا أن هذا التفوق كان ظرفيا فما أن توفي المستنصر الحفصي(ت 675 هـ/1277 م) حتى أعيد طرح القضية بشدة في ظل منافسة زناتة لهم .

وكان السلاح الجديد الذي أشهره الزناتيون هورفع " شعار الشرف "إلا أن أسلوب توظيفه تباين بين بني مرين الذين عمدوا إلى احتواء نخبة الشرفاء فقرّبوهم وأجزلوا لهم العطاء واستعانوا بهم في تزكية سياستهم العسكرية والمالية [4]، في حين اختصر بنوعبد الواد المراحل تبعا لتحولات الساحة السياسية فتبنوا النسب الشريف : صحيح أنهم لم يُدلوا بذلك صراحة ولم يستظهروا رسوم الإثبات التي كان يُتعامل بها في مثل هذه المسائل ، إلا أن عدم نفيهم له وظهور كتابات بلاطية ترّوج لشرفهم وتسعى لترسيخه في المخيال الشعبي يزيد من فرضية تشجيع السلاطين الزيانيين لها أوأنها كانت بإيعاز مباشر منهمتحت تأثير جملة من العوامل ، أبرزها :

قلة بيوتات الشرفاء بالمغرب الأوسط مقارنة بإفريقية والمغرب الأقصى فلم يبق من خيار أمام أمراء بني عبد الواد إلا رفع نسبهم إلى العترة النبوية .

منافسة الحفصيين والمرينيين حول مسألة الخلافة- ومن ثم أحقيتهم في الظفر بالإرث الموحدي - والتخفيف من حدة ضغوطاتهم العسكرية ، كما تشهد بذلك مؤلفات مؤرخيهم[5]وشواهد قبور سلاطينهم (تشهد بخلافتهم لكنها تنكر شرفهم = ليس بالضرورة أن يكون الخليفة شريفا)[6] .

قطع الطريق أمام المعارضة الداخلية والفئات المتوثبة خاصة المتصوفة .

ضمان الاستقرار وقرار الأداءات الجبائية واستمراريتها مما يجعل الدولة في منأى عن الأزمات خاصة أمام ارتفاع النفقات العسكرية في ظل توتر علاقاتها الخارجية .

وبغض النظر عن ملابسات تبني الزيانيين لمسألة النسب الشريف وتوظيفه السياسي فإن الأمر الذي يستدعي المناقشة هو مدى مصداقية هذا الطرح ، وهل هو مرتبط بإحياء نسب تمتد جذوره إلى نسل علي وفاطمة رضي الله عنهما ، أم أنه انتحال للنسب الشريف (خطاب شرافي) اقتضته الضرورة السياسية ؟

2/شرف بني زيان : إحياء أم إدعاء ؟

بدأت مرحلة صناعة الشرف الزياني منذ نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي ، وتضاربت بشأنه الروايات بين من يجعله شرف متأصلفي القدم تمتد جذوره إلى القرن الرابع الهجري/العاشر ميلادي في أعقاب انقراض ملك الأدارسة ، وبين من ينفيه عن بني عبد الواد ويدرجهم ضمن أدعياء الشرف(المتشرفة)الذين استغلوا التطورات السياسية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة لدعم مشروعهم السياسي .

أ/ مثبتو الشرف الزياني

تزعم هذا التيار نخبة من العلماء الذين تدرجوا في خدمة الدولة الزيانية ، وتصدوا لمختلف الوظائف الإدارية (الكتابة والحجابة ...) والخطط الشرعية (الخطابة ، القضاء ، الفتيا ...)، وكانت هذه الصلة الوثيقة التي تربطهم بالقصر الزياني مدعاة للتشكيك في مصداقية روايتهم ، بل أن بعض مخالفيهم جزم بأن مصدرها البلاط نفسه خدمة لأغراض

سياسية داخلية وخارجية تمت الإحاطة بها آنفا .

وأول من طرق هذه المسألة هو الأديب والمؤرخ يحي بن خلدون[7](ت 780 هـ/1378 م) الذي شغل منصب الكتابة في دولة أبي حموموسى الثاني (760 — 791 هـ/1359 — 1389 م) ، إذ أكد في المؤلف الذي وضعه له وأسماه " بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد وما حازه مولانا أبو حمومن الشرف الشاهق الأطواد "على صحة انتساب الزيانيين لآل البيت .

وتربط رواية ابن خلدون الشرف الزياني بشخص يعرف بالقاسم من فلول الأدارسة الذي تفرّقوا أوزاعا شرقا وغربا بعد انقراض ملكهم[8] ، فنزل في بادية تلمسان بين بني عبد الواد فأكرموه وقدموه وصاهروه حتى كثر نسله وتشعبت فروعه[9](بنو طاع الله وبنو دلول وبنو مطهر وبنو وعزان وبنو معطي وبنو حجي) ، وتبركا به وتعظيما لنسبه جعلوا الرياسة في عقبه[10].

وتحسُن الإشارة إلى أنه رغم اتفاق النسابة - حسب ابن خلدون[11] دائما - حول مصدر شرف بني زيان إلا أنهم اختلفوا في الفرع الذي ينحدر منه ، وربطوه بثلاث أوجه :

القاسم بن إدريس الأصغربن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل .

القاسم بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل .

القاسم بن مُحَّد بن عبد الله بن إدريس الأكبربن عبد الله الكامل .

وإلى الطرح الأخير يميل يحي بن خلدون لاشتهاره وإجماع النسابة عليه ، وقربه إلى الواقع لتوافقه الزمني مع تاريخ انقراض دولة الأدارسة[12].

وعلى نهج ابن خلدون سار مُحَّد بن عبد الله التنسي (ت 899 هـ/1493 م) الذي كان أكثر إلحاحا على انتساب الزيانيين إلى بيت النبوة ، وحسبنا قرينا على ذلك مؤلفه المعروف بـ " نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان " إكراما لولي نعمته المتوكل الزياني (866 — 879 هـ/1462 — 1475 م) وحمدا له على آلائه كما أخبر بذلك في مقدمة هذا الكتاب " ... عسى أن أقوم ببعض واجب حقه علي ... "[13].

ولعل المميز لأسلوب التنسي في معالجة مسألة الشرف الزياني أنه أفرد قسما كاملا (يتفرع إلى سبعة أبواب) من مؤلفه لبيان شرف بني عبد الواد ، وألحق في مستهله نسب سلطان عصره المتوكل بالسلالة النبوية ثم عرّج على أصوله المشرقية ، ورغم أنه خص الباب السابع منه لـ" بيان شرف بني زيان وتتبع دولهم إلى دولة مولانا المتوكل فخر الزمان "[14]إلا أن ما يُعاب عليه أنه اكتفى فيه بعرض بعض الإشارات القليلة المرتبطة بهذا الشرف ، وأهمل ذكر قرائن ثبوته وأوجه اتصاله بالدوحة النبوية للرد على المشككين فيه ، وكأني به أراد من خلال استرساله في ذكر مناقب ملوك بني عبد الواد - ونزر من الأحداث التي عرفتها دولتهم حتى عهد المتوكل - شرف الدنيا وما حاق بالزيانيين من رفاه وجاه ونعماء بعد ارتقائهم إلى مصاف الملك كما أشار إلى ذلك يغمراسنبن زيان(633 - 681 هـ/1236 - 1282 م)" وأما الدنيا فنلناها بسيوفنا "[15].

ويبد وأن يحي بن خلدون وعبد الله التنسي قد استطاعا استقطاب بعض العلماء والمؤرخين الذين لهم صيت واسع في الغرب الإسلامي لدعم طرحهما بشأن الشرف الزياني ، فهذا ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب[16](ت 776 هـ/1374 م) الذي كانت تجمعه صداقة علمية وسياسية بابن خلدون يبارك هذه النسبة - رغم خلفياتها السياسية - في قصيدته السينية التي نظمها في مدح السلطان أبي حمو الثاني عندما أحس منه تغييرا تجاهه :

والمنتمي العلوي عيصك لم تكن لترى دخيلا في بنيه دسيسا

بيت البتول ومنبت الشرف الذي تحمي الملائك دوحه المغروسا

وعلى كثرة النسابة والعلماء والمؤرخين الذين انساقوا وراء مسألة ثبات الشرف لبني عبد الواد إلا أن طرقهم للمسألة ورد بشكل عرضي أو استكمالا لدراسة عامة أوفي معرض حديثهم عن خريطة انتشار الشرفاء في المغرب الأوسط ، وقد جاءت نصوصهم حولها مقتضبة وخالية من التفاصيل وهي في معظمها تقليد لأقوال ابن خلدون (يحي وعبد الرحمان)

والتنسي ، وأمام محدوديتها ووحدة مصدرها آثرنا سوقها في جدول على النحو الموالي :

العالم	تاريخ الوفاة	موطنه	مجال نبوغه	الفرع الذي ينتمي إليه الزيانيون	المصدر
لسان الدين بن الخطيب	ت 77 هـ/1374م	الأندلس	أديبومؤرخ	لم يخصص فرعا بعينه	أزهار الرياض 1[17]/254
أبوعبد الله مُحَمَّد الشريف الحسني	ألف كتابه سنة848هـ/1445م	تلمسان	فقيه	مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله الكامل	ديوان الشرف[18]/و.28. و
عبد الله بن مُحَمَّد العبدوسى	ت 849 هـ/1446 م	إفريقية	فقيه	شرفاءحسينيين	روضة النسرين [19]/162
الشيخ إبراهيم التازي	ت 866 هـ/1462 م	وهران	فقيه	لم يخصص فرعا بعينه	النجم الثاقب [20] ج 1/42
أبوزيد عبد الرحمان القيرواني	القرن 11هـ/17م	إفريقية	فقيه	حمزة بن إدريس الأصغر	تحفة روضة الأزهار[21]/و. 13. و
مُحَمَّد بن أحمد المقري	القرن 12هـ/18م	تلمسان	فقيه	مُحَمَّد بن عبد الله بن إدريس	الأنوار وكنز الأسرار[22]/120
العشماوي	1142هـ/1729م	المغرب الأقصى	فقيه	القاسم بن عبد الله بن إدريس	التحقيق في النسب الوثيق[23]/و. 15. و
أبوراس الناصري	1238هـ/1323م	معسكر	مؤرخ وأديب	القاسم بن عبد الله بن إدريس	لقطة العجلان [24]/147
أبوالقاسم الزياني	1249هـ/1833م	المغرب الأقصى	مؤرخ	مُحَمَّد بن سليمان بن عبد الله الكامل	تحفة الحاديالمطرب [25]/87
لسان الدين المشرفي	1313هـ/1895م .	غريس	أديب ومؤرخ	مُحَمَّد بن عبد الله بن إدريس	اليواقيت الثمينة الوهاجة[26]/18

ويستشف من الجدول أن دائرة المؤيدين للشرف الزياني في اتساع مستمر وتعدت حدود انتشارها مجالات المغرب الأوسط ، وظلت في منحاها التصاعدي يتناقلها النسابة والمؤرخون على صورتها الأولى (كما وردت عند الذين شهّروا لها أولا من غير تدليل أو تمحيص) حتى بعد انقراض ملكهم وزوال مبررات استثمارها السياسي .

ب /نُفاة الشرف الزياني

يستند أنصار هذا الطرح إلى المعطى التاريخي لتبرير موقفهم من مسألة النسب الشريف ، إذ يرفضون الخوض فيها مطلقا لأن مرور سبعة قرون كاملة عن ظهور الإسلام يجعل البت فيها أمرا معقدا والنتائج المترتبة عنها تفتقر إلى المصداقية ، ويقدم لنا دعاة هذا الاتجاه بديلا للشرف السلالي بالشرف المكتسب المقرون بالعلم ومن كبار رواده المقري الجد [27] وتلميذه عبد الرحمان ابن خلدون .

وتعكس حالة التقلبات في الولاء السياسي للأخوين ابن خلدون - وسعيهما لتحصيل منصب سياسي يليق بسمعتهما العلمية والسياسية — اختلاف نظرتهما لمسألة الشرف الزياني ، فبينما قاد يحي التيار الذي بارك هذا التوجه راح عبد الرحمان(ت 808 هـ/1406 م) يتزعم تيارا مناقضا شكّك فيه في نسب بني القاسم من بني عبد الواد إلى البيت النبوي "... زعما لا مستند له إلا اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه .."[28] .

وبرّر عبد الرحمان بن خلدون[29] موقفه الرافض لشرف النسب الزياني بجواب يغمراسن بن زيان لما طُرحت المسألة في حضرته " إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله ، وأما الدنيا فنلناها بسيوفنا ... " . صحيح أن جواب يغمراسن قد يُفهم منه كما ذهب إليه كثير من الدارسين أنه إقرار ضمني بأنه لا حظ

لبني زيان في الشرف ، إلا أنه لا يشير صراحة إلى رفضه مطلقا [30] ، ويمكن حمله على وجهين :

- أن جواب يغمراسن يَفصل بين شرف الدنيا من جاه وسلطان وعلو شأن الذي حاق ببني عبد الواد بفضل اعتلائهم سدة الحكم وانتصاراتهم الخارجية ، وبين شرف النسب الذي حسبه لا ينفع صاحبه إلا في الحياة الآخرة ، ويزّكي هذا الطرح جواب يغمراسن بالصيغة التي أوردها يحي بن خلدون[31]" ... إن كان شرف الدنيا فهوما نحن فيه ، وإن كان القصد به شرف الأخرى فهو عند الله سبحانه ... " .

أن الشرف السياسي لم يلق بظلاله بعدُ على الحياة السياسية والاجتماعية خلال عهد يغمراسن بن زيان بدليل أن المصادر تُهمل التلميح له حتى زمن أبي تاشفين الأول (718 - 738 هـ/1318 - 1336م) .

وإلى هذا الرأي مال صاحب " قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان "[32]- الذي يجعل من ترجمان العبر مصدرا له - ، وفيه أنكر نسبة زناتة إلى العرب وأسقط النسب الشريف عن فرع بني عبد الواد منها " ... ومن زناتة بنوعبد الواد ملوك تلمسان القائمين عليها الآن ... "[33].

أما مُحَّد بن علي السنوسي[34](ت 1276 هـ/1859 م) فيجعل من مصطلح بني زيان لفظا جامعا يطلق " ... على قبائل عديدة وأنساب مديدة منهم شرفاء وعرب وبربر ... "، وينفي الشرف عن أمراء تلمسان من بني عبد الواد " .. وقد علمت أنهم بربر ليس لهم في العربية أصل فضلا عن الشرف"[35]، ويحصره في بني زيان الأدارسة القصبيين[36] الذين حكم أسلافهم إمارة تاقدامت[37]بالمغرب الأوسط ، ودخلوا بعد سقوط الدولة الزيانية في حروب طويلة مع الوطّاسيين ملوك المغرب الأقصى .

كما أن شواهد قبور سلاطين الدولة الزيانية – حسب الدراسة القيمة التي أنجزها Brosselardحولها - تدعم طرح هذا التيار ، إذ لا يوجد ضمن نصوص أنساب هؤلاء الحكام المنقوشة عليها ما يشير إلى أنهم ينحدرون من السلالة النبوية فقبر السلطان أبي حمو موسى الثاني مثلا نُقش على شاهده " ... هذا قبر مولانا السلطان أمير المسلمين الملك العادل الحافل ... مولانا أبوحموبن مولانا الأمير الشهير الكبير ... مولانا يعقوب برد الله ضريحه ... "[38].

وعلى الرغم من تعدد الروايات (التي لا يمكن أن نحمّلها أكثر من طاقتها) حول الشرف الزياني وتأرجحها بين النفي والإثبات إلا أن متون هذه النصوص تسوق لنا المسألة دون سند تاريخي أو شرعي يجعلنا نرجح هذا الرأي عن ذاك ، ويؤجل البت فيها إلى مراحل لاحقة وما ستسفر عنه عملية التنقيب في المخطوطات وآثار السلطنة الزيانية .

3/ السلطة الزيانية وخطاب الشرف

يلمح الدارس لمستوى حضور الشرف في السياسة الزيانية تغيرا واضحا في ملامح خطابها الشريفي تبعا لمتغيرات الحقل السياسي لاسيما بعد استعادة الدولة لهيبتها وتوطيد أركانها ، إذ لم يعد الشرف بذلك المحرّك الفاعل لمواجهة تحديات الداخل وتحرشات الخارج ، وهو أشبه بانتهاء فترة الوصاية الزيانية على الشرف في المغرب الأوسط (حصر الشرف في بني زيان وتهميش الفروع الأخرى أو احتوائها) ، أو بالأحرى نحن أمام حدوث طلاق بائن بين الزواج السياسي بين الشرف والسلطة ، وصرنا نقر ألأول في المتون المصدرية عن نخبة للشرفاء خارج دائرة الشرف الزياني بغض النظر عن طبيعة العلاقة بينهما (انتقلنا من شرف السلطة إلى ثنائية نخبة الشرفاء والسلطة على شاكلة النموذج المريني) .

إلا أنه على عكس المغرب الأقصى وإفريقية نلحظ أن الشرفاء بالمغرب الأوسط على العهد الزياني لم يشكّلوا هيئة مُؤطرة اتخذت طابعا مؤسساتيا نظاميا لها حضور سياسي واجتماعي فاعل على ساحة الأحداث ، إذ لا تمدنا الروايات التاريخية إلا بنزر يسير من الإشارات على حالات متفرقة للتقارب بين الشرفاء والسلطة الزيانية أو التباعد بينهما ، وتُبرز هذا الواقع جملة من المعطيات ، أبرزها :

أن معظم الأخبار التي ساقتها لنا المصادر التاريخية ومصنفات المناقب والنوازل عن شرفاء المغرب الأوسط ارتبطت بنماذج فردية أغلبها من الوسط العلمي والصوفي.

ندرة الإشارات والتلميحات إلى مؤسسة نقابة الأشراف التي تعد فضاء رسميا وروحيا لهذه الفئة التي تسهر على رعاية حقوقهم

والدفاع عن مصالحهم المادية والمعنوية .

عدم وضوح السياسة الزيانية اتجاه الشرفاء [39] الذين كان اهتمام السلاطين بهم مناسباتي–زبوني حسب متطلبات الساحة السياسية والاجتماعية للمغرب الأوسط ، وعلى ضوئها تحدد الامتيازات التي تجود بها عليهم .

غياب دواوين إحصاء الأشراف[40] ضمن السجلات الرسمية للدولة - التي انتشرت لدى الحفصيين والمرينيين خاصة بعد ظهور فئة من المتسلقين الذين اندسوا بين هؤلاء الشرفاء - التي من شأنها أن تضبط أعدادهم وتحميهم من المتشرفة وتحفظ لهم حقوقهم .

ولعل ما يبّرر هذا كله أن السلاطين الزيانيين قد رفعوا نسلهم إلى الدوحة النبوية(على الأقل خلال مرحلة التأسيس) ، وإنما اقترنت حاجتهم إلى الأشراف بالقدر الذي يكفل لهم ترويض المعارضة والقبائل المتمردة ، ومباركة قراراتها وإجراءات إدارتها خاصة زمن الأزمات السياسية والمالية .

ومهما يكن من أمر فقد حاولت السلطة الزيانية استثمار الحظوة الكبيرة التي كان يتمتع بها الشرفاء لدى العامة لتعبئتها لخدمة مصالحها ودعم مشروعية حكمها ، إلا أن هذا التوجه لم يكن دوما ذا نتائج مضمونة إذ كثيرا ما توترت العلاقات بين الطرفين كما سيأتي بيانه .

أ/ سياسة الاحتواء

سلك الزيانيون منذ ابتداء دولتهم خطابا دينيا محينا لظروف ومتغيرات هذه المرحلة ، سعوا في بعض صوره إلى محاولة تجنيد الشرفاء واستدراجهم بما يضمن ولاءهم السياسي ووضعهم تحت الرقابة المباشرة للسلطة ، إلى جانب توظيفهم لخدمة مصالح دولتهم ، ومن مظاهر هذا الخطاب :

قبول شفاعتهم : دأب أهل المغرب الأوسط الزياني أمام جور عمال الدولة وكثرة المغارم غير الشرعية على الاستجارة بالشرفاء خاصة الأولياء الصلحاء منهم تبركا بهم وطمعا في حمايتهم ، حتى أن الشيخ مُحَّد بن يوسف السنوسي الحسني[41](ت 895 هـ/1489 م) كتب يوما " ... ثلاثين كتابا من دون فترة ... "[42] إلى الأمراء لقضاء حوائج الناس وفك كروبهم رغم كراهته لذلك لأنها تشغله عن دينه وتلقين العلوم لطلابه .

ومن أكثر أولياء (زاده نسبه الشريف بركة على بركة = الشرف + الولاية) المغرب الأوسط الشرفاء الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الناس ونجدة مسلوبهم ونصرة مظلومهم والعطف على مفزوعهم الشريف أحمد الغماري[43](ت 874 هـ/1469 م) الذي كان منقطعا للتعبد وخدمة العلم في زاويته بأحواز وهران من أعمال بني زيان .

فلما أطاح السلطان المتوكل على الله بالسلطان أحمد العاقل (834 — 866 هـ/1430 - 1462 م) لجأ كتابه وعماله وكبار موظفي دولته إلى دار الولي الشريف أحمد الغماري واستجاروا بحماه ، ولما جد المتوكل في طلبهم قال له الشيخ " ... إن الله أحسن إليك فأحسن لعبيده وأعفوا عن هؤلاء الولاة"[(44)] فعفا عنهم السلطان التماسا لرضا الشيخ وطمعا في بركة دعائه ، كما أُثر عنه أن بركته هذه وصدق سريرته كانت سببا في افتكاك أسير من سجن أحد عمال السلطان بعد التجاء والده إليه [45].

وكانت لكبير هؤلاء الفارين الناصر بن ربيقصة استجارة مع أحمد الغماري مفادها أن أحد بني ورنيد أثقلت كاهله المغارم وعجز عن أدائها في وقتها فتعقبه جنود ابن ربيب ولم يمنعهم احتماؤه بحرم الشيخ من أخذه بالقوة فرد الغماري" ... هذا حرم فمن ضيعه لابد من الالتجاء إليه ... "[46] فكان من شأنه ما سبقت الإشارة إليه .

ويزداد حرص أحمد الغماري في الدفاع عن حقوق الضعفاء ورعاية مصالحهم وتفريج ضائقتهم إذا كانوا شرفاء من نسل النبي ﷺ ، وحسبنا مثالا على ذلك وقفته الحازمة مع شرفاء مغراوة في منطقة شلف الذين اشتكوا إليه " ... جور عامل وطنهم وأنه تنقصهم وأهاليهم وسواهم على غيرهم من الرعية ... "[47] فاستشاط الشيخ غضبا وكاتب السلطان فيهم فنزل عند طلبه وأمر بعزل العامل وأعاد الاعتبار لشرفاء مغراوة وأوصى العامل الجديد بهم خيرا[48] ، فسر الشيخ من جوابه فشكر له سعيه وأرسل إليه سفرا للزمخشري في شرحه للآية " إلا المودة في القربى "[49] ليطلعه على فضل من أكرم آل البيت وأحسن إليهم وأنشد يقول :

يا أهل بيت الرسول حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

التبرك بالشرفاء :

ربط ابن السكاك[50]في نصح ملوك الإسلام استقرار الدول وازدهارها بدرجة اعتنائها بآل البيت ، فببركة نسلهم الطاهر يتوسع سلطانهم وتزدهر أيامهم وتدوم رياستم ، وتقصر مدتهم وينحسر سلطانهم وتتكالب عليهم الأعداء بإهمالهم لحقوق آل البيت ومصالحهم .

وإلى جانب ما تجنيه السلطة الزيانية من إكرام الشرفاء سياسيا واجتماعيا ، فإن سلاطينها كانوا يدركون جدا بركة هذا النسل فحرصوا دوما على التقرب منهم تبركا بهم وطلبا لرضاهم ومساعدتهم في إدارة شؤون الرعية ، وإلى ذلك سعى المتوكل على الله بقبوله شفاعة أحمد الغماريفي كبار رجالات السلطان أحمد العاقل في صدر دولته[51] ، ومن مظاهر هذه السياسة :

مصاهرة الشرفاء استجلابا للخير وتبركا بعترتهم النقية الطاهرة ، واستمالة لها لإكساب شرعية لسلطتها مثلما فعل أبو حمو موسى الثانيالذي صاهر الشريف مُحَّد بن أحمد الحمودي الحسني التلمساني [52].

طلب الدعاء من صلحاء هذه النخبة وأوليائها ، ومن ذلك طلب السلطان أبي عبد الله(879- 910 هـ/1475- 1505 م) لقاء الشيخ مُحَّد بن يوسف السنوسي الحسني وأمام اعتذار الأخير التمس السلطان منه أن يكتب له أدعية يتحصن بها ببركته من كل سوء فأجابه الشريف السنوسي إلى ذلك [53].

حضور مجالسهم العلمية ، فقد كان السلطان أبوحمو الثاني يحضر أحيانا لمجلس أبي عبد الله الشريف التلمساني ليشهد حلقات من تفسير القرآن[54] ، أما الإمام الشريف السنوسي فكان يتحرج من حضور السلطان وحاشيته إلى مجلس إقرائه لأنه عادة ما يكون مناسبتيا ويرتبط بقضاء مآرب سياسية[55] ، كما قد يفسّره البعض على أنه شكل من أشكال المبايعة للسلطان والولاء له (الاحتواء) .

أبوعبد الله الحسني سفيرا لأبي حمو موسى الثاني

ينتدب الملوك والسلاطين في العادة للمهمات الدبلوماسية الرسمية الصعبة أكفأ رجالاتهم لإعطاء صورة مشرقة عن الدولة وحكامها - " من شخصية الرسول يعرف سيده "- ، وأأمنهم في الحفاظ على مصالحها ، وكذلك كان دأب السلاطين الزيانيين الذين كانوا أشد حرصا على ذلك لطبيعة العلاقات (متوترة في الغالب) التي تربطهم بدول الجوار.

وكانت نخبة الشرفاء في مقدمة هؤلاء المقربين من السلطة خاصة أهل العلم والصلاح الذين تعدت شهرتهم الحدود القطرية للسلطنة ، فهم بذلك يحظون بمباركة السلطة ويكسبون ثقة الطرف الآخر ، بدليل أن بعضا منهم حظي برعاية خاصة من الأمراء المرينيين بعد دخولهم تلمسانوتبعا لما أوردته المصادر فقد حمل الفقيه مُحَّد بن أحمد الشريف الحسني صفة" سفير دولة أبي حمو موسى الثاني "بامتياز الذي كثيرا ما أوفده في مهمات رسمية تستدعي أن يكون على رأسها اللبيب الراجح العقل ، ويعدّد لنا يحي بن خلدون ثلاثة منها :

بُعث في أواخر جمادى الثانية سنة 763 هـ/1361 م لتوثيق معاهدة الصلح وفداء الأسرى مع أبي الحسن المريني[56]

أوفد للتفاوض حول الصلح الذي اقترحه أبو إسحاق بن أبي يحي(الأمير الحفصي لبجاية) في جمادى الثانية سنة 764 هـ/1362 م لكن بعد فرار مُحَّد بن السلطان أبي سعيد أرسل أبو حمو الثاني من يسترد أبا عبد الله الشريف[57].

أرسل رفقة مُحَّد بن عمر البريطل إلى المغرب لعقد مهادنة مع بني مرين في 24 ربيع الأول 767 هـ/1365 م [58].

امتيازات الأشراف

اعتبر الكثير من الدارسين أن هذه المسألة هي عصب خطاب الشرف في الغرب الإسلامي قاطبة لما لها من تداعيات روحية ومادية على شرائح واسعة من المجتمع الزياني التي تباينت مواقفها منها – ولو أنها لا ترقى إلى مستوى التنظيم والتنوع والاستمرارية التي وجدت عليها في المغرب الأقصى وإفريقية - ، ففي الوقت الذي رأى فيها الشرفاء حقا شرعيا وبخاصة أن الصدقة لا تجوز في حقهم بالنص على مذهب الجمهور ، اعتبرتها السلطة الزيانية التزاما دينيا وسياسيا يدعم شرعيتها

ويوطد سلطانها إلا أنه كثيرا ما أرهق خزينتها لاسيما في أزمنة الأزمة ، وشكّلت لفريق ثالث إغراءً ماديا ومعنويا قاده المتشرفة لإعادة ترتيب تموضعهم الاجتماعي والسياسي في المجتمع الزياني .

وعلى الرغم من تأكيد مؤرخي البلاط الزياني على أن سلاطينه كانوا معظمين لآل البيت حافظين لحقوقهم ومصالحهم ، إلا أن ما بين أيدينا من نصوص ووثائق لا يرقى لرسم معالم لسياسة زيانية رسمية واضحة في منح الامتيازات لشرفاء الدولة وتراتبها لاسيما في ظل غياب السجلات الرسمية والإشارات الواضحة إلى وجود دواوين إحصاء بيوتات الأشراف وضبط امتيازاتها وتطهيرها من المندسين والأدعياء .

ويستشف من التلميحات القليلة المتناثرة بين نصوص المصادر الإخبارية ومصنفات المناقب إلى امتيازات الأشراف التي اجتهد سلاطين بني عبد الواد في منحها لشرفاء دولتهم (اضطرتنا محدودية النصوص وتخصصها إلى التركيز على نخبة هذه الفئة) أنها اتخذت أشكالا متنوعة انحصرت في :

الرعاية المادية[59](منح الهبات، ترتيب الجرايات ، وقف الأراضي والمحلات كالأفراد والمعاصر والحوانيت الممتلكات على المؤسسات التي يديرونها من زوايا ومساجد ومدارس....) .

توليتهم للوظائف الإدارية والخطط الشرعية[60]واستخدام بعضهم في مهام دبلوماسية كسفراء لحمل "الرسائل للأمور المهمة... "[61].

نصرة المظلومين منهم والاقتصاص من ظلمتهم كما حدث لعامل شلف الذي قصّر في حقهم وأساء السيرة فيهم فعزله السلطان وأوصى خليفته بالإحسان إليهم وحفظ حقوقهم[62].

خصهم بألقاب ترفعمن شأنهم وتميزهم عن العامة ، من مثل السيد والشريف ... وهي مصطلحات تحفل مصادر المرحلة بها .

ب /معارضة الشرفاء للسلطة الزيانية

تكاد تنعدم الإشارة في المصادر التاريخية والمراسلات الرسمية للدولة الزيانية إلى توتر العلاقة بين السلاطين والشرفاء اللهمّ بعض التلميحات المنعزلة التي تفتقر إلى صلة بينها ، وعلى قلة هذه النصوص يتبين للدارس أن معارضة الشرفاء للسلطة كانت في معظم الأحيان غير مباشرة ، وأن شرفاء الحاضرة التلمسانية ظلوا بعيدين عنها ويقترن ذلك أساسا باستفادتهم المستمرة من امتيازات بني عبد الواد ووجودهم تحت رقابتهم المباشرة ، كما أن كثيرا من أشكال هذه المعارضة اتخذ طابعا فردانيا خال من أي تأثيرات سياسية ، ولعل أبرزها :

رفض عطايا السلاطين

قاد هذا التيار نخبة من الأولياء الشرفاء الذين فرغوا أنفسهم للتعبد وأعرضوا عن الدنيا وملذاتها ، ووهبوا وقتهم للعلم وقضاء حوائج الناس، فزاد احترام الناس لهم وتعاظمت منزلتهم حتى أحرجت السلطة التي حاولت احتواءها واستثمارها لتمرير أيديولوجيتها ومخططاتها ، إلا أنها لم تجد قبولا لديهم لأنهم كانوا يعتبرون قادتها أهل دنيا قد ينجم عن مجالستهم وإتباعهم مفاسد عظيمة .

ويشير مُحَّد فتحة[63]أن ما زاد من قوة هذه النخبة وتعاظم هيبتها التوجه الجديد للتآليف المنقبية بعد العهد الموحدي التي انتصر فيها أصحابها للأولياء(الأشراف والمتصوفة)- الذين كانوا قَبلاً مضطهدين من طرف السلطة وتعرض بعضهم للسجن والمتابعة - ، لتشهد هذه المرحلة تعاظم هذه الكتابات التي تروج لكرامات الأولياء وتحذر من مخاطر تعدي الحدود معهم الأمر الذي عقّد من مهمة السلطة في تمرير خطابها الشرافي وشعرت بحاجز روحي – بشري يحول دون مراقبتهم ومعاقبة مخالفيهم لاسيما في ظل كثرة مريديهم .

فعلى الرغم من الموقف الواضح لبعض عناصر هذه الفئة الرافض للتعاون مع السلطة إلا أن سلاطين بني عبد الواد لم ييأسوا من محاولة خطب ودهم على الأقل التماسا لبركة دعائهم وتليينا لجانبهم وأمن شرهم ، فكثيرا ما سعوا لإقناعهم بقبول هداياهم وعطاءاتهم للاستعانة بها لقضاء حوائج الناس إلا أنهم ظلوا يرفضونها درءا للشبهات .

وكان الإمام مُحَّد بن يوسف السنوسي الحسني أكثر هؤلاء عزوفا عن قبول الإعانات المادية من السلطة فكان " لا يقبل شيئا مما يأتي إليه من قبل السلطان وغيره من أقاربه وخاصته كالوزراء والقواد ونحوهم ممن يتعلق بالسلطان"[64]، فقد حدث أن ساق إليه أمير زياني مالا كثيرا فرفض الشيخ أخذه منه حتى على سبيل الهدية فما كان منه إلا أن فرّقه على

أتباعه[65] .

كما أرسل إليه السلطان أبوعبد الله كتابا يطلق فيه يده على أخذ جزءا من غلات مدرسة الحسن أبركان فامتنع الشيخ فأرسل إليه السلطان ثانية وأمام إصراره أجابه الشريفالسنوسي " فليرجع أمير المؤمنين سدّد الله تعالى خاطره من قبلنا ولا يتشوف منا إلى شيء من إ مدادنا في العيش الدنيوي وإعانتنا فنحن قد أغنانا مولانا تبارك وتعالى عن ذلك ومن لم يقنع في الدنيا بالقليل لم يقنع بالكثير "[66].

ويكشف لنا هذا الوضع الرافض للانسياق وراء لخطاب الشرافي للسلطة الزيانية عن جرأة بعض الأولياء الشرفاء وترسّخهم في المجتمع وأنهم صاروا مصدر ريبة وترقب من السلطة تجاه هذه الفئة ، التي تمادى تطاولها وأضحت ترفض حتى تسليم بعض مطلوبي السلطان كما حدث مع الشريف مُحَّد بن يوسف السنوسي الذي رفض تسليم امرأة استجارت بداره رغم إلحاح السلطان على ذلك ، لكنه - أي السلطان - أضطر أمام تمسّك الشيخ بموقفه إلى التغاضي عنه [67]، كما أن من يتجرأ منهم على الاعتداء على حرمة هؤلاء الأولياء الشرفاء ستحل به الكائنة كما حدث لابن ربيب الذي أخذ مطلوبا للسلطان بالقوة من بيت الشريف أحمد الغماري فكان مصيره فيما بعد من مصير هذا المطلوب[68].

جهاد الإسبان ... نقطة الخلاف

على الرغم من سقوط غرناطة في يد النصارى عام 897 هـ/1492 م إلا أن تحرشاتهم بالمسلمين لم تتوقف وظلت جيوشهم تشن غارات متعاقبة على سواحل المغرب الإسلامي ، وسقطت في أيديهم مدن إستراتيجية في المغرب الأوسط كوهران والجزائر - من أعمال بني زيان - منذ مطلع القرن السادس عشر

وأمام عجز الدولة الزيانية عن صد هذه الغارات وتقاعسها عن جهاد الإسبان لاسترجاع مدنها التي تم الاستيلاء عليها توترت علاقتها مع أشراف هذه الأقاليم خاصة بعد دخولها في شبه تبعية للنصارى[69]ويتجلى ذلك من خلال ضعف التنسيق بين الطرفين ، وعزوف سلاطين بني عبد الواد عن تقديم المساعدات المادية والعسكرية للمتطوعة الذين تكتلوا لمواجهة الإسبان خاصة في أقاليم السلطنة الشرقية فكان ذلك إيذانا بكسر التحالف (حتى ولوأنه أضحى صوريا في أواخر العهد الزياني) بين نخبة الشرفاء وسلطة بني زيان .

في ظل ضعف التأطير وقلة العتاد واستمرار الضغوط الخارجية اعتمد أهالي هذه الأطراف على المتطوعة الذين انتظموا في جماعات تتناوب على العسّة (نظام محلي مستحدث) لرصد تحركات العدو والاستعداد لأي طارئ[70]، وكان للأشراف دورا بارزا في دعم هذه الحركة وتأطيرها .

ففي الجزائر وأحوازها قاد الأشراف الجعفريون (ينحدرون من نسل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه) يؤمهم الشيخ العالم عبد الرحمان بن مُحَّد الثعالبي(ت 875 هـ/1471 م) الذي استغل مكانته العلمية ونسبه الشريف ليستحث الناس على مجاهدة النصارى[71]، واستعان بفضلائهم لإعانته على تبليغ رسالته وتحسيس الأهالي بخطورة الوضع " ولو اطّلعتم على ما اطّلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا بشئ من أمور مهماتكم بعد الصلاة إلا بآلة الجهاد "[72]، وحتى يقوّي من عزيمتهم كان يدعم دعوته برؤيا عن النبي ﷺ يخبره فيها أنه " من عمل درقة –يعني للجهاد – فإنها تحول بينه وبين النار "[73].

وبغض النظر عن صدق هذه الرؤيا أم أنها كانت السبيل الأوحد لتمرير خطابه ولملمة الشمل وتشجيع الأهالي على الاستعداد الجيّد لمواجهة الخطر الذي يتهددهم ، فإن إستراتيجية الثعالبي هذه ما لبثت أن أتت أُكلها وتنافس القوم في البوادي والحواضر (حتى النساء منهم) على صنع درق العود المصنوعة من الصفصاف والفرنان التي أضحت الوسيلة الأنجع في ظل ضيق الوقت لمواجهة التحرشات الأجنبية .

وعلى عكس الجزائر لم تلق دعوة عبد الرحمان الثعالبي القبول الكافي في بجاية - الذي استنجد به بعض فقهائها - ربما لبعده عنها ، وهوما نلمحه في رسالته إلى الشيخ الفقيه أبي مُحَّد بن أحمد بن يوسف الكفيف " ... فما رأيت لكلامي تأثيرا كما أثّر هنا ... "[74].

وللشرفاء الأدارسة أيضا إسهام في تأطير حركة الجهاد واشتهر منهم يحي بن عبد العزيز الفليتي[75]الذي نظم غوثية يستحث فيها كبراء فليتة (غليزان حاليا) على تأليب أهلها لمجاهدة

النصارى ليواصل ابنه محمد بن عودة[76]مسيرته بعد وفاته ، كما كانت زاوية محمد بن علي مولى مجاجة قاعدة للاستراحة والتموين ، ومركزا روحيا يتبرك به المجاهدون لتحقيق النصر على الأعداء[77].

كما تعاون الشرفاء مع الأتراك أثناء فترة الحكم المزدوج الزياني- العثماني للمغرب الأوسط لصد الهجمات الإسبانية ، فهذا الولي الصالح الشريف أبوعبد الله المغوفل يدفع بولديه للانضمام إلى الأتراك في مجاهدة النصارى وطردهم من سواحل بلادهم[78].

وعلى ضوء هذا الواقع الجديد صار أهالي الأقاليم الشرقية يرون أن الأتراك الأحق بحكم المغرب الأوسط لجهودهم في الدود عن حياضه ورد تحرشات النصارى به لاسيما في ظل تعاون الزيانيين معهم ، ولا أدل على ذلك من مساهمة بعض الشرفاء في الحملة العثمانية على تلمسان يتقدمهم ابنا الشريف أبي عبد الله المغوفل[79] .

وانضم إلى الركب ولي مليانة أحمد بن يوسف الملياني[80](ت931 هـ/1526 م) - المختلف في نسبته إلى البيت النبوي – الناقم على السلطة الزيانية بسبب إطلاقها يد اليهود في السياسة المالية للسلطنة ، وتنامت حدة التوتر بين الطرفين بعد تقاعس الزيانيين عن مناجزة الإسبان ودخولهم في طاعتهم ، الأمر الذي جعله ينضم في خلق كثير من أتباعه إلى حملة عرّوج على تلمسان[81]، ورغم انتصاره في البداية إلا أن أبا حمو الثالث (916 – 933 هـ/1516 - 1528 م) سرعان ما قلب الأمور لصالحه سنة 924 هـ/1518 م ، وانتهى أمر الملياني إلى السجن ولم يفك أسره إلا على عهد السلطان المسعود حليف الأتراك[82].

ويبد وأن التقارب بين الأتراك والأشراف (وهو الآخر موضوع جدير بالدراسة) قد زاد تلاحما بعد سيطرة الأوائل على المغرب الأوسط وظهرت آثاره على الواقع مع مطلع الفترة الحديثة ، ويتجلى ذلك من خلال توسعهم في منح الامتيازات للأشراف وتنشيطهم لنقابتهم، كما بدأت تبرز على عهدهم بعض التآليف التي تؤرخ لشرفاء المنطقة .

خاتمة

يتضح من خلال هذه الدراسة أن التفاعل بين الشرف والسلطة بالمغرب الأوسط خلال العصر الزياني أملته المتغيرات الجديدة التي طرأت على الحقل الديني في أعقاب سقوط الدولة الموحدية ، وعلى الرغم من أن التقارب بين الشرفاء والسلاطين لم يُؤطَر في هيئة مؤسساتية نظامية وطغى عليه الطابع الزبوني - المناسباتي إلا أنه أحدث الدكليك الذي كانت تحتاج إليه السلطة الزيانية لفرض خياراتهاوتجسيد مخططاتها على الجبهة الداخلية والتخفيف من حدة ضغوط دول الجوار على المستوى الخارجي ، وظل هذا التناغم في العلاقة بين الطرفين (خاصة في حاضرة تلمسان) إلى أن لاح الخطر الإسباني على سواحل المغرب الأوسط الذي كان موقف الزيانيين منه في مجمله سلبيا مما أثار حفيظة الشرفاء خاصة في الأقاليم الشرقية للدولة الذين حاولوا استغلال مكانتهم الاجتماعية والدينية لتعبئة الأهالي وتنظيم حركة الجهاد ضد النصارى واشتد ساعدهم أكثر بقدوم الأتراك

الهوامش

1- ابن خلدون أبوزيد عبد الرحمان بن مُحَمَّد ، المقدمة ، تحقيق : خليل شحاذة وسهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2001(مواضع متفرقة من المؤلَف) .

2 - البيذق أبوبكر الصنهاجي ، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : عبد الوهاب بن منصور ، دار المنصور ، الرباط ، 1971 ، ص ،12 — 13

3 - الغبريني أبوالعباس أحمد بن أحمد ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1970

4 - مُحَمَّد القبلي ، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط ، ط 1 ، دار توبقال للنشر ، الدار لبيضاء ، 1987 ، ص87 — 89

5 - ابن خلدون أبوزكرياء يحي ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج1 ، تحقيق : عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1980 ، ص ،190 وما بعدها ، التنسي مُحَمَّد بن عبد الله ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان — مقتبس من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان — تحقيق : محمود بوعياد ، منشورات A . N . E .P ، الجزائر ، 2010 ، ص ،119 — 120

6- M . C .Brosselard , Mémoire épigraphique et historique sur les tombeaux des émirs Beni – Zeiyane , et de Boabdil dernier roi de Grande découverts à Tlemcen , J . A , T 7, 1876 , P،5 - 201

7- يحي بن خلدون ،المصدرالسابق ،ص ،190 ، لا يقدم ابن خلدون في هذا الباب أدلة دامغة في بيان شرف بني زيان الذي ربطه بشهادة السماع التي تعتبر في المذهب المالكي كافية لإثبات النسب الشريف .حول منزلة شهادة السماع في إثبات النسب الشريف ، راجع : البيجريالمكناسي مُحَمَّد بن عبد السلام ، الإنصاف في القضاء بين النقيب وبين من انتسب إلى بيت النبوة من الأشراف ، مخطوط الخزانة الحسنية ، الرباط ، رقم 1994 ، ص ،و. 16 . ظوما بعدها

8 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

9 - كما توجد فروع أخرى من بني عبد الواد لا حظ لها في الشرف منهم : بنوياتكتن وبنووللوومصحوجة وبنوتومرت . أنظر : التنسي المصدر السابق ، ص ،119 ، قارن : يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ص ،190

10 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

11 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

12 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

13 - التنسي ، المصدر السابق ، ص ،117

14 - المصدر نفسه ، ص ،121

15 - ابن خلدون أبوزيد عبد الرحمان بن مُحَمَّد ، ديوان العبر والمبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج 7 ، تحقيق : خليل شحاذة وسهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2001 ، ص ،97

16 - المقري شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، ج 1 ، تحقيق : أحمد السقا وآخران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، 1939 ، ص ،254

17 - المصدر نفسه .

18 - أبوعبد الله مُحَمَّد الشريف الحسني ، روضة الأزهار في التعريف بآل مُحَمَّد المختار ، مخطوط المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم 2608 ، يختلف صاحب هذا المخطوط ، ص ،و. 28 . و عن باقي المصادر في الجهة التي وفد منها الشرفاء الزيانيون إلى تلمسان ، ويؤكد أن قدومهم إليها لم يكن مبكرا ، فقد كان حسبه جدهم زيان (ينحدر من ولد أحمد بن مُحَمَّد بن سليمان وليس القاسم) تاجرا أمينا في مصر فقتل واستحوذ صاحبها على ماله وفر غلمانه إلى تلمسان ومنه يتفرع الزيانيون .

19 - ابن صعد أبوالفضل مُحَمَّد بن سعيد التلمساني ، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين ، ط1 ، الديوان الوطني للنشر والإشهار ، الجزائر ، 2004 .

20 - ابن صعد أبوالفضل مُحَمَّد بن سعيد التلمساني ، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب ، ج1 ، مخطوط مكتبة الملك آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، رقم 1262 .

21 - ابن أبي زيد القيرواني عبد الرحمان بن عبد الله بن مُحَمَّد ، تحفة روضة الأزهار في تعريف آل النبي مُحَمَّد المختار ، مخطوط الخزانة الحسنية ، الرباط ، رقم 2020 .

22 - المقري أحمد بن مُحَمَّد بن عبد الله الكلبي ، كتاب الأنوار وكنز الأسرار في نسب آل النبي المختار ، مخطوط الخزانة الحسنية ، الرباط رقم 2231 .

23 - العشماوي أحمد بن مُحَمَّد بن أبي القاسم ، التحقيق في النسب الوثيق ، مخطوط الخزانة العامة ، الرباط ، رقم د 1351 .- 23

24—لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان وأنه من ملوك بني زيان ، تحقيق :حمدادوبن عمر ، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، الجزائر ، 2011 .

25 - الزياني أبوالقاسم ، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب ، تحقيق : رشيد الزاوية ، منشورات وزارة الأوقاف ، المغرب 2008.

26 – لسان الدين العربي بن عبد القادر المشرفي ، ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي مُحَّد مولى مجاجة ، مخطوط خاص .

27 - أبوالعباس أحمد بن مُحَّد التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج5 ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1988، 281

28 - عبد الرحمان بن خلدون ، المصدر السابق ، ص ،97

29 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

30 - بعد استعراض ابن خلدون لمسألة شرف بني القاسم ختم بقوله " **والله أعلم بصحته** " وهوما يفتح الباب أيضا للتأويلات ويجعل طرحه يكتسي طابع النسبية في نفي النسب الشريف عن الزيانيين . المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

31 - بغية الرواد ، المصدر السابق ، ص ،205 ، ومن الغريب أن نفس المسألة (الشرف المريني) لما طرحت على أبي الحسن المريني وهويحاصر تلمسان ، رد بجواب يقارب في معناه جواب يغمراسن ويترك تأكيده أونفيه مفتوحا " **... هذا شيء إن كان على ما قلته فنرجوالنفع به عند الله في العقبى ، وإن كان غير ذلك فلا خير لنا في الشك بما فيه مطعن علينا ...** " . راجع : ابن مرزوق أبوعبد الله مُحَّد بن أحمد بن مُحَّد التلمساني (الجد) ، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق : ماريا خيسوسبيغيرا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981 ، ص ،109

32 - القلقشندي أبوالعباس أحمد بن علي ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1982 ، ص ،177 .

33 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

34 - الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية ، ط 4 ، ليبيا ، 1966 ، ص ،118

35- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

36- المصدر نفسه ، ص ،119

37- حول إمارة تاقدامتالشريفيةالتي امتد مجالها من جبال الونشريس إلى صحراء المغرب الأوسط . أنظر : بن عودة بن إسماعيل ، الشجرة الثبيتة في نسب شرفة فليتة ومناقب أوليائهم الشتيتة ، مخطوط خاص ، ص ،2–5، الدرر السنية ، المصدر السابق ، ص ،119 وما بعدها .

38- Mémoire épigraphique, op. cit , p‹58

39 - القبلي ، المرجع السابق ، ص ،87

40 - حول جهود السلاطين المرينيين لإحصاء الشرفاء وتمييزهم عن المتشرفة . راجع : الزياني ، المصدر السابق ، ص ،90 وما بعدها .

41 - صاحب العقائد ، من أشهر علماء تلمسان ، له مؤلفات في التفسير والفلك والطب والتصوف ، عاش ما بين (895، 832 هـ) أنظر حوله : المواهب القدسية ، المصدر السابق ، حسن بوقلي ، مُحَّد بن يوسف في الذاكرة الشعبية وفي الواقع ، الديوان الوطني للنشر والإشهار ، الجزائر ، 2003 .

42 - الملالي ، المصدر السابق ، ص ، و. 108. ظ

43- هوأبوالعباس أحمد بن الحسن بن عبد الرحمان بن يحي ، من عرب رياح ، سمي بالغماري لسكناه إقليم غمارة ، وهوشريف من جهة أمه . حوله أنظر : ابن صعد ، روضة النسرين ، المصدر السابق ، ص ،193

44 - المصدر نفسه ، ص ،220

45 - المصدر نفسه ، ص ،222

46 - المصدر نفسه ، ص ،220

47 - المصدر نفسه ، ص ،233

48 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

49– سورة الشورى ، الآية 23

50- أبوعبد الله مُحَّد بن أبي غالب المكناسي ، نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم في حقوق آل البيت الكرام عليه أفضل الصلاة والسلام ، طبعة حجرية ، المطبعة الجديدة ، فاس ، 1898، 3 وما بعدها

51 - ابن صعد ، روضة النسرين ، المصدر السابق ، ص ،220

52 - ابن خلدون أبوزيد عبد الرحمان بن مُحَّد ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ، تحقيق : مُحَّد بن تاويتالطنجي ، الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر ، 2007 ، ص ،64

53 - الملالي ، المصدر السابق ، ص ،و. 187 . و

54 - التنسي ، المصدر السابق ، ص ،190

55 - الملالي ، المصدر السابق ، ص ،و.92 . ظ

56 - ابن خلدون أبوزكرياء يحي ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج2 ، تحقيق : بوزياني الدراجي ، دار الأمل ، الجزائر ، 2007 ص ،223

57 - المصدر نفسه ، ص ،278

58 - المصدر نفسه ، ص ،334

59 - المصدر نفسه ، ص ،283 ، عبيد بوداود ، قراءة في أوقاف مساجد وزوايا تلمسان في العهد الزياني ، مجلة قرطاس الدراسات الحضارية الفكرية ،

العدد التجريبي ، 2008 ، ص ،26 وما بعدها

60 - يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ،215

61-التنسي ، المصدر السابق ، ص ،189

62 - ابن صعد ، روضة النسرين ، المصدر السابق ، ص ،233

63 - الامتحان المتبادل في علاقة الولي بالسلطان - ضمن كتاب السلطة العلمية والسلطة السياسية بالمغارب - ، ط 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، 2012 ، ص ،149—150

64 - الملالي ، المصدر السابق ، ص ،و. 61 . و

65 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

66- المصدر نفسه ، ص ،و. 61 . ظ

67 - المصدر نفسه ، ص ،و. 102 . ظ وما بعدها

68 - ابن صعد ، روضة النسرين ، المصدر السابق ، ص ،220

69 - عبد الله نجمي ، التصوف والبدعة بالمغرب —طائفة العكاكزة - ، ط 1 ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، 2000 ، ص ،98 - 99

70 - بن عودة بن سليمان ، المصدر السابق ، ص ،15 - 17

71 - استدنا في تقصي دور الأشراف الجعفريين في جهاد الإسبان إلى رسالة - بعث بها عبد الرحمان الثعالبي لأحد فقهاء بجاية يحثه فيها على تأليب الأهالي على الجهاد — عثر عليها أبوالقاسم سعد الله في ثنايا مجموع مخطوط بدار الكتب المصرية ، وهي تقع في ورقتين ويعود تاريخ نسخها إلى القرن السابع عشر . راجع : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ج1 ، ط 4 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005 ، ص ،201 — 211

72- المرجع نفسه ، ص ،210

73 - المرجع نفسه ، ص ،209

74 - المرجع نفسه ، ص ،210

75 - مُحَّد شايب الدراع ، أعلام ومآثر فليتة ، الملتقى المنعقد بغليزان يوم 2005/06/29 ، ص/25 — 26 .

76— ابن عودة بن إسماعيل ، المصدر السابق ، ص ،158 وما بعدها ، غير أن بعض الدارسين يدخلون نشاطه الجهادي ضمن الفترة العثمانية على اعتبار أنه من مواليد 972 هـ . راجع : مُحَّد شايب الدراع ، المرجع السابق ، ص ،16 - 18

77 - لسان الدين المشرفي ، المصدر السابق ، ص ،32 - 33

78 - أبوالقاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، ط 1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998، ص ،177 ، مُحَّد مفلاح ، غليزان مقاومات وثورات ، دار الأديب ، الجزائر ، 2010 ، ص ،24 - 25

79- سعد الله ، المرجع السابق ، ص ،177

80 - هوأحمد بن يوسف الملياني الراشدي شيخ الطريقة الراشدية (اليوسفية) ، كان له نشاط سياسي بارز أثناء الصراع العثماني الزياني الإسباني على المغرب الأوسط ، واتهمه بعض معارضيه من العلماء بالإلحاد بسبب بعض آرائه الشاذة . حوله أنظر : الصباغ مُحَّد بن مُحَّد بن أحمد القلعي ، بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد الراشدي النسب والدار ، مخطوط الخزانة العامة ، الرباط ، رقم ك 243، ابن الحاج موسى علي بن أحمد ، ربح التجارة ومغنم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة إلى ضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف دخيل مليانة ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم 928

81 - عبد الله نجمي ، المرجع السابق ، ص ،100 — 101

82- مُحَّد حاج صادق ، مليانة ووليها أحمد بن يوسف ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1989ص ،103